

الجمهورية الجزائرية

جامعة الوادي

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري

وتونس 1881-1954م

مدينة غدامس ودورها التجاري والثقافي بين ليبيا

وتونس والجزائر خلال القرن التاسع عشر

د. امحمد سعيد الطويل

جامعة الزاوية / كلية الاداب زوارة

مدينة غدامس ودورها التجاري والثقافي بين ليبيا وتونس والجزائر خلال القرن التاسع عشر

مقدمة

غدامس مدينة قديمة ذكرها يقاوت الحموي في معجمه فقال : " غدامس بفتح اوله ويضم ، وهي عجمية بربرية فيما احسب : وهي مدينة بالمغرب ثم في جنوبيهي ضاربة في بلاد السودان بعد بلاد زافوان ، تدبغ فيها الجلود الغدامسية وهي من اجود الدباغ لاشيء فوقها في الجودة كائنها ثياب الخز في النعومية والاشراق وفي وسطها عين ازاليه وعليها اثر بنيان عجيب رومي . " ⁽¹⁾ والغدامسي اجود انواع الجلود المذهبة يستعمل لتنجيد الفرش . ⁽²⁾ ويقول ابن خلدون " غدامس أو يقال لها ردامس وكانت تسمى قديماً سيداموس وهي مدينة بربرية قديمة لا يعرف تاريخ تأسيسها بالتحديد ⁽³⁾ وارتبطت مدينة غدامس سياسيا منذ نشأتها الأولى بطرابلس، وتحديداً بصبراتة التي تعتبر مينائها الرئيسي طوال تاريخها القديم تقريباً ثم بطرابلس خلال العصور الوسطى والحديثة باستثناء بعض الفترات القصيرة نسبياً التي تتعرض فيها طرابلس إلى احتلال خارجي أو عدم استقرار داخلي، حيث يبحث تجار غدامس عن أسواق أكثر ملائمة لتصريف منتجاتهم وتجارتهم، واقتناء بضائعهم فيتجهون بطبيعة الحال إلى تونس أو إلى الجزائر.

فموقع غدامس الاستراتيجي بين الدول الثلاث ليبيا وتونس والجزائر مكنها من ان تكون حلقة وصل بينهما ، والبوتقة التي تنصهر فيها العادات والتقاليد الشعبية القادمة من الشمال من طرابلس وتونس بتلك الثقافة والعادات والتقاليد السائدة في الصحراء وبلاد السودان الغربي والوسط " فيما يعرف اليوم النيجر وتشاد " .

فاغدامس لاتبعد عن طرابلس الا بحوالي 500 كم ، وعن مدينة قابس التونسية بحوالي 400 كم وعن مدينة ورقلة الجزائرية 420 كم وتغرت 500 كم وعن مدينة غات الليبية بحوالي 600 كم فهي بهذا واسطة العقد بين جميع هذه المدن وتكاد تكون المسافة بالتساوي ، وجعل منها على اتصال مستمر بتلك المدن .

الدور التجاري لمدينة غدامس خلال القرن التاسع عشر:

لقد تمتعت مدينة غدامس بموقع استراتيجي جعلها وبحق بوابة الصحراء وأتاح لها فرصة التبادل التجاري بين أنحاء القارة الأفريقية، ووفر للغامسية السوق المناسبة للحصول على السلع المطلوبة إلى جانب توفير فرص العمل لسكان المدينة المحدودة الموارد، وبالتالي كانت عملية تعويد الأطفال في غدامس على تعلم فنون التجارة شرط أساسي لإعداد جيل الغد في المدينة، ويؤكد ذلك الرحالة التونسي الشيخ محمد بن عثمان الحشايشي بقوله " عندما يبلغ هؤلاء - يقصد الأولاد - سبع سنوات من العمر ويحفظون نصيباً من القرآن، يرسلونهم إلى تونس للقيام بالتدريب على التجارة وهناك يتعلم هؤلاء الشباب معرفة قيمة المال وينمون ذكاءهم، ولهذا كانت عقول جميع الغدامسية متفتحة غير منغلقة، وهم أكثر ذكاء من اليهود أنفسهم في شؤون التجارة⁽⁴⁾، كما يؤكد هذا الرحالة حرص الغدامسية على تنمية ثرواتهم واستثمارها، مع الاقتصاد والتكشف في مصروفاتهم الاستهلاكية من مأكّل وملبس⁽⁵⁾.

إن الروح البرقراطية لتجار غدامس على مر العصور جعلتهم يبحثون عن أماكن الكسب والثراء أينما وجدت وجعلتهم يتكيفون، إلى حد كبير، مع الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في تلك الأماكن ما دامت توفر لهم دخلاً مجزياً، ولعل هذا ما يفسر لنا الانتشار الواسع لتجار غدامس في العديد من المراكز التجارية الهامة لأفريقيا وقد قدر ماريون جونسون MARION JOHNSON⁽⁶⁾ عددهم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بحوالي 129 منهم 19 في كانو، و4 في سكوتو، و3 في زاريا، و3 في نوبي، و4 في دوما، و6 في زندر، و37 في تونس بالإضافة إلى آخرين في طرابلس ووحدات الجنوب الجزائري، ويعطينا الحشايشي معلومات أكثر تفصيلاً عن تجارة غدامس وأماكن تواجدهم وحتى بعض أسمائهم خلال الفترة نفسها المشار إليها فيقول⁽⁷⁾ يوجد منهم ستة في برنو من بينهم المسمى محمد بن محمد بن إبراهيم صهر سلطان برنو - ويعد منهم في تشاد اثنان، وبزندر ستة، وببيلد بوشبير أربعة، وبغات أربعة وعشرون، ولا يوجد بوداي سوى واحد هو محمد الصياح الأثير لدى سلطان وداي، ويعد بكانم اثنان، وبمرزق اثنان، وببيلد

دامرغو ستة من بينهم الشيخ محمد البشير الوحشي، وبلد كانوا تسعة عشر منهم الشيخ محمد ابوزمالة، وعلي بن بركة وهو عبد زنجي للتاجر محمد بن إبراهيم الثني، والتاجران حماد وزبرمه عتيقا الحاج علي بن أحمد الثني، وبلد نو ثلاثة -، وبلد زاريا ثلاثة، وبتنكتو المسمون حمو البليلي وعبد الرحمن بن كيالي ومحمد بن محمد بن علي بن رشيد، والبشير بن محمد أحمد الغنجي، وأحمد بالحاج إبراهيم، وهذا في خدمة عائلة الثني، وحرمو المزغني، ويلاحظ هنا أن الحشائشي لا يذكر كل تجار غدامس بتنكتو الذين كانوا يتخذون حيا خاصاً لسكناهم بالمدينة معروف إلى اليوم بحي الغدامسية، ولكنه يركز على أهم الشخصيات التجارية ليس في تنكتو فحسب بل، وفي جميع المراكز التجارية التي أشار إليها، وبالإضافة إلى ما سبق . يضيف الحشائشي بأنه كان بسوكوتو أربع وقرابة الأربعين تاجراً معتبراً بتونس⁽⁸⁾، وأحد عشر تاجراً مستقرين بغدامس نفسها، ولهم شركاء في كامل بلاد السودان، وقد قاموا بعدة رحلات إلى هذه البلاد وعرفوها بصفة كاملة كما عرفوا الصحراء، وهم يقودون قوافل سنوية بين الشمال والجنوب⁽⁹⁾ وأنهم الوسطاء التجاريون الرئيسيون بين البحر المتوسط وبلدان أفريقيا الوسطى⁽¹⁰⁾.

لقد كان تجار غدامس ينقلون من الشمال المنسوجات بأنواعها، والشاي والسكر والأسلحة النارية، ومن الجدير بالذكر كان لطرابلس دوراً كبيراً في تجارة الأسلحة رغم محاولة الأوربيين الحد منها، ولكن عمليات التهريب وخصوصاً بنادق وينتشر 18 طلقة وبندقية ريمغتون ذات الطلقة الواحدة التي انتشرت انتشاراً واسعاً بين الطوارق⁽¹¹⁾، ومن المرجح إن هذه التجارة كان لها دوراً مهماً في مقاومة الفرنسيين، وأخر سيطرتهم على الصحراء غير أن من سلبياتها استخدامها في الحروب الأهلية بين الطوارق أنفسهم وفي هجماتهم على القوافل التجارية والمدن والواحات الليبية والجزائرية المتاخمة للصحراء في بعض الأحيان. وكانت قوافل غدامس التجارية تعود محملة ببضائع ومنتجات السودان مثل التبر (غبار الذهب) وناب الفيل والجلود بأنواعها والعبيد وغيرها في منتجات السودان. لقد امتلك تجار غدامس، شأنهم في ذلك شأن بقية سكان الصحراء الوسيلة الكفيلة بتحقيق أهدافها

التجارية ألا وهو الجمل⁽¹²⁾ الذي يعتبر دليل القوى ووسيلة الحرب والنقل طوال القرن التاسع عشر تقريباً فسكان الصحراء، على الرغم من اعتمادهم على أنفسهم غالباً، فإنهم بالتأكيد محتاجين إلى تبادل السلع مع غيرهم. وحرصاً من السلطات العثمانية في طرابلس على استقطاب تجارة الصحراء لمساهمتها الفعالة في اقتصاد الولاية فقد عملت على تخفيض الرسوم الجمركية على تجار غدامس، وهي سياسة حكيمة جعلت من موانئ ولاية طرابلس معبراً مثالياً لهذه التجارة في وقت حاول فيه الأوروبيون استقطاب هذه التجارة إما إلى تونس أو إلى الجزائر بالنسبة لفرنسا وخصوصاً بعد احتلال فرنسا لمنطقة عين صالح ثم وصولهم إلى تمبكتو 1894 و إلى المحيط عن طريق نيجيريا بعد ربط لاجوس بكانو عن طريق خط حديدي عمله الانجليز⁽¹³⁾.

الاثار الثقافية والاجتماعية لتجار غدامس في المدن المتاجر معها

لقد ترتب على هذا الانتشار الكبير لتجار غدامس في العديد من المراكز التجارية الأفريقية ورحلاتهم السنوية منها وإليها نتائج ثقافية واجتماعية: فمن الناحية الثقافية لم تكن مدينة غدامس منغلقة على نفسها طوال تاريخها القديم والوسيط والحديث، إذ بفضل موقعها ونشاط أهلها أصبحت على اتصال مستمر بالمحيط الخارجي، ومكن سكانها من الاطلاع على حياة وثقافة غيرهم من خلال الاحتكاك المباشر وأصبح للغدامسية تأثيراً وتأثراً بغيرهم من الشعوب الأفريقية، فبفضل الاغدامسية انتقلت الطريقة السنوسية⁽¹⁴⁾ الى واحات الجنوب الجزائري مثل توات، وورقلة، وواد سوف، وتقرت، وهي الاسواق التجارية التي كانت تشهد حضوراً واضحاً لتجار غدامس فقد كانت عائلة الثني الاغدامسية تحتفظ بمندوب تجاري يقيم بمدينة توات مهمته تزويد هذا السوق بما يحتاجه من بضائع السوق الليبي او التونسي وتصدير ما تحتاجه تلك الاسواق من البضائع الموجودة بسوق التواتي والاسواق القريبة منه⁽¹⁵⁾.

لقد وجدت الطريقة السنوسية قبولا بين الاوساط الشعبية الصحروية عامة وخصوصاً في الجنوب الجزائري بحكم بسطة هذه الطريقة ودعوتها الى العودة

بالإسلام الى سابق عهده وتنقيحه من الشوائب التي علقت به نتيجة لعهود من التأخر والجهل طوال فترة الحكم العثماني تقريبا ، الى جانب اعتماد شيخ الطريقة وخلفائه من بعده على شخصيات ذات علم الوراثة بعضهم اصيل اقليم توات وهو الشيخ محمد التواتي الذي لعب دورا مهما في الحركة السنوسية في ليبيا والجزائر والسودا الاوسط بالاضافة الى الشيخ محمد البسكري اصيل مدينة بسكرة.

لقد وقفت الزوايا السنوسية في الجزائر والنيجر وتشاد ضد الحركة التبشيرية الفرنسية في الصحراء انطلاقا من الجزائر العاصمة وكذلك من تونس فيما بعد حيث نشطت العديد من المؤسسات التبشيرية مثل جماعة الالباء البيض بكل من الجزائر وتونس للقيام بهذا العمل الديني قد عبر الكردينال لا فجري Lavigeri عن ذلك الاتجاه صراحة بقوله " ... ان فرنسا لاتنجب كثيرا من الرجال لتعمير الجزائر وعليه يجب ان نعوض ذلك بفرمسة المليونين من برابرتنا المستعمرين " (16) وعند دخول الجيوش الفرنسية الى تونس سنة 1981م صرح قائلا " ... ان ذلك يمثل الانتصار النهائي للحضارة المسيحية في هذه الشعوب البربرية " (17)

لقد وصل الامر بفرنسا الى اعتبار اتباع الطريقة السنوسية بعين صالح هم اعداؤها الحقيقيون يؤكد ذلك "الكومندان ديپورتير" بقوله " ... ان السنوسية قد احرزت في هذه المناطق – الجنوب الشرقي الجزائري – خلال السنوات الاخيرة على تقدم سريع ، حتى ان رئيس مقاطعة عين صالح قد اصبح واحدا منهم وهو اكثرهم تشددا " (18) : ويختتم تقريره عن نشاط السنوسية قائلا "فالسنوسيون هم اعدونا ولايمكن ان نستخف بهم والاحسن ان نراقبهم عن كثب في كل نشاطاتهم وتحركاتهم بالجزائر . " (19) ولم تنتظر فرنسا طويلا حيث ارسلت حملتها العسكرية على الصحراء واحتلت الجنوب الشرقي الجزائري بكامله سنة 1899م متخذة منه منطلقا للاستيلاء على السودان الاوسط "النيجر وتشاد" لتتصدم من جديد مع اتباع الطريقة السنوسية . (20) في تلك الجهات .

ومن الناحية الاجتماعية تركت التجارة آثارا واضحة في التركيبة الاجتماعية لسكان غدامس من خلال التزاوج، والتلاقح بين الجاليات الغدامسية وسكان المراكز التجارية التي استقروا بها، بل أن بعضهم ارتبط بالأسر الحاكمة لتلك المراكز عن طريق المصاهرة فكان منهم الوزراء والمستشارون وبالتالي كان لهم تأثير سياسي قوي أيضاً ، لكن ذلك الانتشار الواسع لتجار غدامس وشبه سيطرتهم على التجارة الرابطة بين طرابلس وتونس والجزائر وغرب ووسط أفريقيا لعشرات السنين شهد مع نهاية القرن التاسع عشر بداية تراجع واضحة فما سبب ذلك التراجع ؟ وما هي انعكاساته على المدينة وتجارها؟

الصراع الدولي على مدينة غدامس وانعكاساته على دورها التجاري والثقافي:
تعتبر الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م بداية مرحلة جديدة ليس في قارة أوروبا وحسب بل وفي أفريقيا أيضا حيث تعتبر البداية الفعلية لتنفيذ المخططات الأوربية في السيطرة على أفريقيا فبالإضافة الى حملت الجزائر اتخذت كل من فرنسا وإنجلترا من طرابلس (ليبيا) قاعدة لعملياتها في أفريقيا عن طريق إرسال الرحالة والمستكشفين تارة وعن طريق محاولة استقطاب شيوخ القبائل وزعماء الانتفاضات المعادية للحكم العثماني تارثا اخرى .

لقد عملت الدول الأوربية على اتخاذ الأراضي الليبية منطلقاً لتحقيق أهدافها وراء الصحراء والسيطرة على تجارة القوافل فالصراع الاوربي أصبح مكشوفاً مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبحكم الموقع الاستراتيجي لمدينة غدامس والذي أشرنا إليه فيما سبق فقد أصبحت محط أنظار العديد من الدول:- الدولة العثمانية وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا، ففي فرنسا بدأت تحتل غدامس مكانة مهمة في أولويات السياسة المستقبلية الفرنسية جنوب الصحراء بعد وصولها إلى منطقة الأغواط وورقلة في الجنوب الجزائري بين عامي "1852-1854م" واستغلال بعض الشخصيات الجزائرية الموالية لها في السيطرة على المنطقة، فقد نصبت الشيخ حمزة بن أبي بكر من قبيلة أولاد الشيخ حاكماً باسم فرنسا على المنطقة الممتدة بين ورقلة وتوات وطلبت منه كسب ود طوارق الأزقر الذين يسيطرون على الطريق

الرابط بين غدامس و غات، وتنفيذاً لهذه السياسة قام الشيخ حمزة بزيارة غات 1854م صحبة وجهاء طوارق الأزقر⁽²¹⁾.

إن السيطرة الفرنسية على هذه المنطقة تعطيها عدة ميزات منها:

- السيطرة على تجارة القوافل، ومراقبة تحرك اتباع الطرق الصوفية والتصدي لأي محاولة تستهدف إعلان الجهاد ضد الوجود الفرنسي والأهم من ذلك عزل الجزائر ثم تونس فيما بعد عن لهيب الثورة الإسلامية الذي قد يندلع من الأراضي الليبية ضد الوجود الفرنسي وينتقل عن طريق هذه المدن الحدودية إلى تونس والجزائر، إلى جانب اتخاذ غدامس و غات قواعد متقدمة للوثوب إلى السودان الأوسط في المستقبل القريب.

وأكد الساسة الفرنسيون أن فرنسا ليست لها أية مصلحة في انفجار التعصب الإسلامي ضدها والذي يمكن أن يشتغل بتونس ويمتد إلى الجزائر⁽²²⁾.

ولكن السؤال كيف تستطيع فرنسا تحقيق هذه الأهداف خاصة وأن عميلها حمزة بن أبي بكر قد مات مسموماً⁽²³⁾ ويبدو أن الإستراتيجية الفرنسية في المنطقة كانت تسعى إلى تحقيق هدفين :- الأول استمالة طوارق الأزقر المسيطرين على طريق غدامس غات وتوات ورقلة ثم بث الفرقة بين الطوارق بصفة عامة واستغلال الصراعات الداخلية بينهم في السيطرة على المنطقة نهائياً وتحقيقاً للهدف الأول عملت فرنسا على استقطاب الشيخ اخنوخ زعيم طوارق الأزقر إلى صفها ودعته إلى باريس ومقابلة الرئيس الفرنسي وأقنعه بعقد معاهدة غدامس التي عقدت في 1862/10/26م التي نصت على⁽²⁴⁾:-

1. الصداقة والتعاون بين السلطات الفرنسية ورؤساء الطوارق
2. لا يدفع الطوارق مكوسا على أموال بلادهم وأموال السودان التي سيرفعونها إلى جميع أسواق الجزائر، وينطبق ذلك على ما يدفع على الأموال الفرنسية المشابهة.

3. يضمن الطوارق سلامة التجار الفرنسيين والجزائريين القاصدين السودان خلال بلادهم ويأخذون لذلك إتاوة المرور وأجرة الجمال.

4. يترك للوالي العام في الجزائر أمر تحديد أسهل طريق للتجار الفرنسيين القاصدين السودان لخبرة رؤساء الطوراق و صداقتهم وحسن نياتهم.

وإلى جانب تلك البنود الأربع أضيفت نقاط أخرى تخص تعهد ومسؤولية عائلة اخنوخن على تطبيق تلك المبادئ والمزايا الممنوحة لهذه العائلة⁽²⁵⁾.

وبالرغم من ان عبد الرحمن تشايجي يشكك في نوايا طوراق الأزقر اتجاه فرنسا غير أن فرنسا ذاتها لا تعول كثيراً على هذه المعاهدة على الأرجح والتي لم تنفذ في البداية على الأقل نتيجة للثورة العارمة التي عمت الجنوب الجزائري بعد المعاهدة بقليل ولكنها- أي فرنسا- تعتبرها مرحلة مؤقتة يمكن بعدها السيطرة على المنطقة من خلال دراستها واستعداداتها العسكرية لها.

لقد أصبح الصراع شديداً بعد هذه المعاهدة بين فرنسا والدولة العثمانية المدعومة من الانجليز ثم إيطاليا فيما بعد أيضاً باعتبار الهدف واحد وهو إبعاد فرنسا، والضحية بطبيعة الحال هي غدامس وبقية المدن والأراضي الليبية والإفريقية عامة ففرنسا والدولة العثمانية كل منهما يحاول السيطرة على المدينة والاستفادة من موقعها الجغرافي الممتاز، فقامت فرنسا بتعزيز اتفاقية غدامس الأولى التي لم تحقق الهدف المرجو منها وهو تحويل تجارة السودان و غدامس إلى مدن شرقي الجزائر بسبب الحروب الدائرة بين قبائل الطوراق من ناحية ومحاوله الدولة العثمانية إفشال خطط فرنسا من ناحية أخرى فعقدت فرنسا سنة 1874 م اتفاقاً مع تجار غدامس نص على⁽²⁶⁾:-

1. تأسيس العلاقات التجارية بين الغدامسيين والفرنسيين.
2. معاملة التجار الفرنسيين معاملة حسنة في غدامس.
3. الإقامة في المدينة على نفقتهم.
4. عدم أخذ موكوس الدخول من التجار الفرنسيين.
5. يذهب الغدامسيون إلى أسواق الوادي وتغرت إذا أعجبته تلك العلاقات.

غير أن هذا الاتفاق كان محكوماً عليه بالفشل منذ البداية نظراً لعدم أهلية تجار غدامس في توقيع مثل هذه الاتفاقات التي من اختصاص السلطات العثمانية في الولاية والآستانة، لكنها على أية حال – أي السلطات الفرنسية – نجحت سنة 1881م في فتح قنصلية لها بغدامس⁽²⁷⁾ الأمر الذي أتاح لها فرصة مراقبة الأوضاع عن كثب وتوجيه سياستها وفق ما يستجد من أحداث.

ربما أعطى هذا التنافس بعض المزايا لتجار غدامس من خلال إيجاد أسواق بديلة وتخفيف المكوس ومحاولة كل منهما كسب ود تجار غدامس ولو مؤقتاً، ولكنه أيضاً زاد من الدسائس بين فرنسا والعثمانيين والانجليز، وبلغ هذا الأمر ذروته باحتلال فرنسا لتونس سنة 1881م، ونظراً لوجود جالية تجارية غدامسية بها وحيث أن محاولة تحويل تجارة غدامس والسودان إلى الجزائر لم تتحقق بالصورة المطلوبة ولكن تحويل تلك التجارة إلى تونس يمكن أن يتحقق عن طريق تقديم التسهيلات إلى غدامس من ناحية وممارسة الضغوط على الجالية التجارية الغدامسية الكبيرة بتونس من ناحية ثانية، بالإضافة إلى أن الحضور التجاري الليبي في تونس بصورة عامة أكثر وضوحاً منه في الجزائر.

• تراجع دور مدينة غدامس وانهيائها :

شهدت نهاية القرن التاسع عشر عدة تحولات أسهمت في تراجع تجارة غدامس عبر الصحراء منها عدم الاستقرار واختلال الأمن عبر الطرق المؤدية إلى تلك المراكز التجارية الأفريقية وتشير مراسلات التجارة الغدامسية إلى عدة حوادث قطع للطرق التجارية وعمليات نهب وسلب، وعلى الأرجح أن هذه الحوادث قد أضرت بتجار غدامس فقد بلغت خسائرهم في إحدى تلك الهجمات قرابة المليون قرش⁽²⁸⁾ وبرغم من أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير لكنه يدل دلالة واضحة على سعة المبادلات التجارية بين الأسواق الأفريقية جنوبي الصحراء والمراكز التجارية الساحلية كما يدل على وجود طبقة رأسمالية قوية بين تجار غدامس تكدست لديها الأموال الطائلة بسبب احتكارها لتجارة الصحراء، ومن العوامل الأخرى التي أسهمت في تراجع تجارة غدامس حروب رابح الزبير في السودان الأوسط والفوضى السياسية التي حلت بممالكه بعد وفات سلطان كنو وسلطان زنذر وتعرض العديد من

التجار الطرابلسيين إلى مصادرة أموالهم وفرار الكثير منهم من تلك المناطق حاملين معهم القليل من ثرواتهم، وزاد الأمر سوء تدخل القوات الفرنسية في المنطقة واحتلال تمبكتو إلى جانب السياسة الانجليزية الرامية إلى تحويل تجارة وسط أفريقيا إلى المحيط عن طريق خط حديدي يربط كانو بلجوس، كما ظهر طريق بديل للتجارة بين بنغازي ووادي عن طريق الكفرة، حيث أصبحت الكفرة غدامس الشرق فهي الوسيط التجاري بين الشمال والجنوب أو بين الساحل والصحراء.

إن محاولات الفرنسيين الاتصال بشرق ولاية طرابلس وإقامة علاقات تجارية معه من خلال إرسال الرحالة الحشائشي إلى بنغازي ثم الكفرة وحتى غات في نفس الوقت الذي يقوم فيه مغامر فرنسي هو ديموريس برحلة من تونس إلى غات صحبة الحاج على الثني أحد أكبر الوكلاء التجاريين الغدامسية بتونس وصحبة على السيناوي وآخرون كانوا في خدمه ديموريس، ولكن هذا المغامر الفرنسي لم يكن أحسن حالا من غيره من المغامرين والجواسيس الذين لاقوا حتفهم في رمال الصحراء حيث قتل في الوطية غير بعيد عن واحة سيناون في منتصف شهر يونيو 1896م وقتل معه الحاج على الثني وبعض رفاقهما⁽²⁹⁾. فكان لهذا الحادث ردود فعل قوية لدى فرنسا وهددت باحتلال مدينة غدامس، الأمر الذي أثار مخاوف إيطاليا.

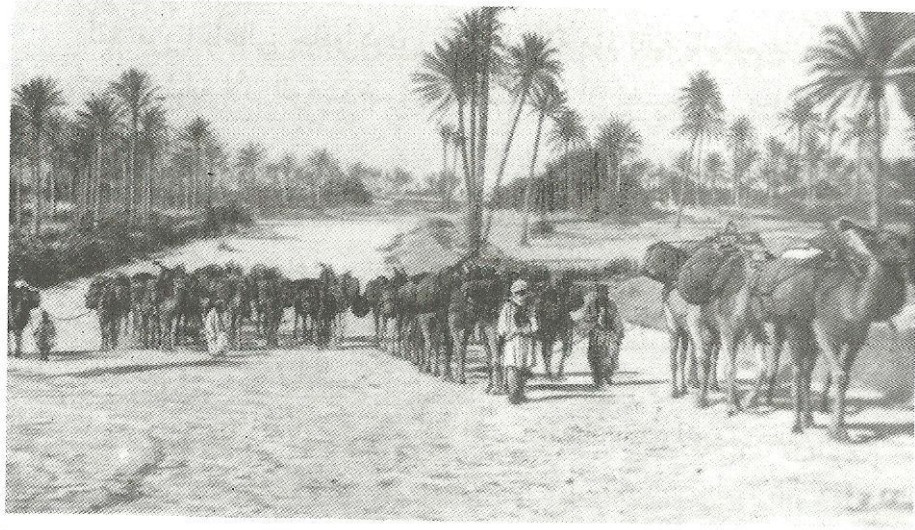
لقد أيقنت فرنسا بأنه لا يمكن السيطرة على تجارة الصحراء من الشمال بعد فشل كل محاولاتها في السيطرة على الطوراق وجعلهم مواليين لها أو حتى مسالمين لتجارها ومن يحملون حمايتها بالإضافة إلى زيادة عدد الحامية العثمانية بغمادامس بعد سنة 1902م ومحاولتها السيطرة على المدينة كما أن إيطاليا أيضاً قامت باحتجاج كبير لدى فرنسا التي طمأنتها بأنها ليست لديها أطماع ترابية في المنطقة ولا تفكر في مد خط حديدي بين غدامس وغات.

إن تراجع تجارة غدامس والتحولات التي طرأت عليها مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تثير العديد من التسؤلات منها ما هو مصير تجار غدامس المنتشرين في الأسواق الأفريقية المشار إليها؟ وهل رجع بعضهم واستقر بعضهم الآخر هناك؟ وهل يمكن الاستفادة اليوم بذلك الأسلوب التجاري الذي اتبعه تجار غدامس في الربط بين الشمال والجنوب والشرق والغرب عن طريق فتح

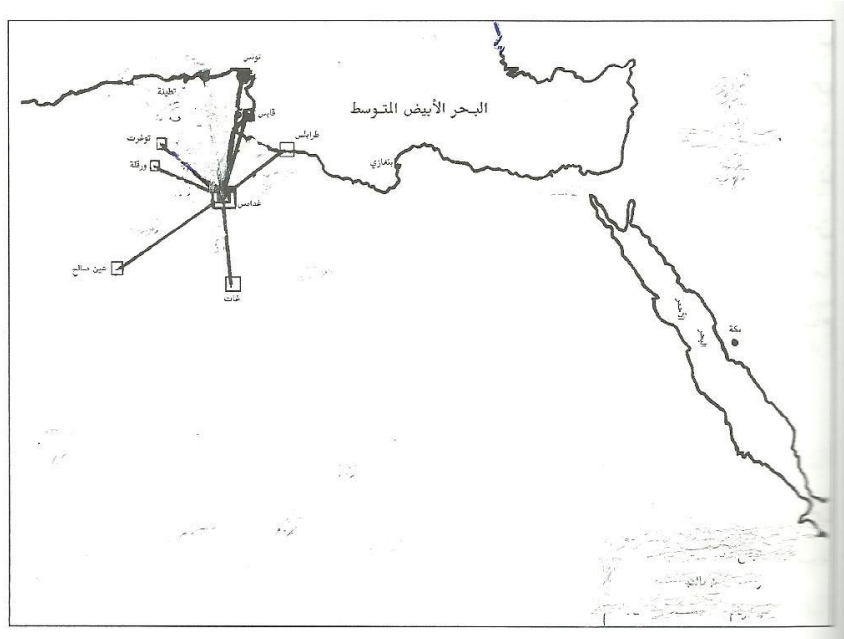
مناطق حرة للتجارة الصحراوية بين ليبيا وتونس والجزائر اليوم تقريبا لتحقيق اتحاد المغرب العربي ؟

الخاتمة

لقد لعبت غدامس دورا مهما في تجارة الصحراء خلال القرن التاسع عشر والربط بين طرابلس وتونس والجزائر الى جانب ربط اسواق غرب ووسط افريقيا ، فكان للتجار الاغدامسية حضورا واضحا وكبيرا بتلك الاسواق وقد ترتب عن هذا الحضور تأثيرات ثقافية واجتماعية من خلال نشر الدين الاسلامي والطرق الصوفية والعادات والتقاليد الاسلامية الامر الذي نتج عنه توحيد صفوف المسلمين في الصحراء لمقاومة الاستعمار الفرنسي وخصوصا في جنوب شرق الجزائر والنيجر وتشاد ، لكن في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بداء الصراع الدولي على مدينة غدامس يشدد فكانت فرنسا والدولة العثمانية وإيطاليا تتكالب على السيطرة عليها ونعكس ذلك سلبا على تجارتها ودورها الثقافي في المنطقة وبعد ذلك التاريخ تقريبا اصبحت غدامس واحة يقصدها السواح للاطلاع على ماضيها المجيد



قافلة في طريقها الى واحه غدامس نقلا عن ماتويزيو رحلة من طرابلس الى برقة



خارطة توضيحية لموقع مدينة غدامس بين ليبيا وتونس والجزائر

المصادر والمراجع

- 1- الحموي : يقوت (بن عبدالله بن شهاب الرومي) ، معجم البلدان ، دار صادر لطباعة والنشر ، 1979م ، ج 4 ص 187.
- 2- دوزي ، رينهارت : تكملة المعجم العربية ، تعريب محمد سليم النعيمي ، منشورات وزارة الثقافة بغداد ج 7 ص 388.
- 3- نقلا عن الزاوي ، الطاهر أحمد : - معجم البلدان الليبية ، طرابلس ، مكتبة النور ، ط 1 ، 1968م ، ص 241 .
- 4- الحشائشي ، محمد بن عثمان : الرحلة الصحراوية ، ترجمة وتقديم محمد المرزوقي ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، 1988 ، ص 167.
- 5- نفسه ، ص 167.
- 6- MARION. JOHNS ON: CALICO: THE TRIPOLI KANO. TRADE. AFTER.1880. JOURNAL. OF AFRICAN. HISTORY. NO. 17. 1976- P11
- 7- الحشائشي ، مصدر مشار إليه ، ص 169.
- 8- نفسه ، ص 170.
- 9- نفسه ، ص 170.
- 10- رولفس ، غير هارد :- رحلة عبر أفريقيا ، دراسة وترجمة عماد الدين غانم، طرابلس ، مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية ، 1996 ، ص 200.
- 11- موسوعة تاريخ أفريقيا العام ، الترجمة العربية ، ج 6 ، الصحراء الكبرى خلال القرن التاسع عشر ، ص 580.
- 12- نفسه ، ص 583.
- 13- نفسه ، ص 585.

14- الطريقة السنوسية تنسب الى مؤسسها محمد بن علي السنوسي اصيل مستغانم الجزائرية ينتمي الى قابيلة الخطاطبة ، هذب الى فاس لتلقي العلم ، ثم توجه الى الاراضي المقدسة 1830م ، وفي سنة 1835م اسس زاويته الاولى في جبل ابي قيس حيث اكتسب شهرة واسعة ومنها انتشارات هذه الطريقة في بلاد الحجاز واليمن والعراق، ثم انتقل الى برقة في شرق ليبيا حيث اسس اول زاوية بها ومنه انتقل الى الجغبوب والكفرة ... الخ للمزيد راجع محمد الطيب الاشهب ، برقة العربية بين الامس واليوم ، طبعة مصر 1936م ص 123-208

15- فرج ، محمود فرج ، اقليم توات خلال القرنين 18 ، و 19 ، دوان المطبوعات الجامعية 1977م ، ص70

16- التميمي ، عبدالجليل ، حركة التبشير في تونس ، مجلة الاصاله ، الجزائر ، العدد 29 – 30 ، فبراير 1976م ، ص 49-61

17- نفسه ص 58

18- فرج ، محمود فرج المرجع سابق ذكره ، ص 111

19- نفسه ، ص111

20- حول نشاط السنوسية في السودان الاوسط راجع محمد الطيب الاشهب المصدر السابق ذكره ، ص 161-185

21- تشانجي ، عبد الرحمن :- الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى ، تعريب على اعزازي ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي ، 1982 ، ص 63.

22-ROUAR. DECARD. LA. POLITQUE. DE. LA. ERANCE.
ALEGARD DE, LA. TRIPOLITAINE PARIS. 1906. P42-46.

23- تشانجي ، مصدر مشار اليه ، ص 76.

24- نفسه ، ص 71-72.

25- نفسه ، ص 72.

26- نفسه ، ص 82.

27- ناجي ، محمود : تاريخ طرابلس الغرب ، تعريب عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى ، بنغازي منشورات الجامعة الليبية ، بدون تاريخ ، ص 206.

28- حول الخسائر التي تعرض لها تجار غدامس في نهاية القرن التاسع عشر ، راجع مجموعة الوثائق التي نشرها ، بشير قاسم يوشع ووثائق غدامس 949هـ / 1542-1343هـ / 1924 ، طرابلس مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، 1995م ، وخاصة الوثيقة رقم 122 ، ص 295-300.

29- حول رحلة ديموريس إلى غات راجع ، محمد المرزوقي ، صراع مع الحماية ، تونس ، دار الكتب الشرقية 1973م ، ص 359-393.